

# الأعداد العلمي ومستقبل النشء

للكنور على مصطفى مشرفة

وكيل كلية العلوم وأستاذ الرياضة التطبيقية فيها

شرح الجمع المصري للثقافة العلمية في طبع كتابه السنوي الذي يشتمل على المحاضرات التي ألقى في المؤتمر السنوي الثالث برئاسة الدكتور شاهين بإبنا . ولما كان موضوع التعليم ومستقبل المتعلمين من أعظم المشكلات التي تواجهها وأبنا إن نشر جانباً كبيراً من محاضرة الدكتور مشرفه

لتفرض أن رجلاً من أهل القرون الوسطى بُعث من مرقده اليوم فقلب نظره في مظاهر حياتنا وأسباب عمراننا ثم لتفرض أننا وجهنا إليه هذا السؤال « ما الفرق بين أحوال أهل الأرض في القرن العشرين وبين أحوالهم في حياتك الأولى ؟ »

أظن أنه إذا حاول الإجابة عن هذا السؤال لأول وهلة فإن جوابه يكبر على النحو الآتي « إنني أجد أحوالكم تختلف عما كانت عليه حياتنا في كثرة الآلات التي تستخدمونها وفي تنوع الأدوات التي تصنعونها وفي عظم الابنية التي تشيدونها والمبتدعات التي قد توصلتم إلى انشائها مما تغلبتم به على الطبيعة إلى حد يحار فيه لبي » . ولا شك في أن هذا الجواب يمثل إلى حد ما حقيقة الفرق بين حياتنا في القرن العشرين وحياتنا يوم أن كنا نعتطي الانعام ونستير بائزرت . فمدنيتنا الحديثة في ظاهرها مدينة مُعدّر وآلات، مدينة قاطرات وسيارات، مدينة قاطحات السحاب واتفاق في جوف الأرض، مدنيتطارات وغواصات، ومن منا لا يفتخر بمحورنا للسافات الثاسعة باللاسلكي واتصارنا على الظلام بالانوار الكهربائية الساطعة وفهرنا للجرائم بالامصال الواقية والعقاقير الشافية ؟ أقول إن جواب صاحبنا يمثل الحقيقة إلى حدّ ما لأنه لا يمثل الحقيقة كلها بل هو يمثل سطح الحقيقة — إن جاز لي أن استعمل هذا التمييز — أما قلب الحقيقة فأعمق مما عنّ لصاحبنا لأول وهلة . فإفراء هذه المظاهر التي تدركها حراسنا لمدنيتنا الحديثة يوجد العامل المحدث لها جميعاً والسبب الأولي الذي إليه مرجع وجودها . هذا العامل المحدث والسبب الأولي هو العقل البشري . والفرق الحقيقي أيها السادة بين القرن العشرين وبين القرون الوسطى هو الفرق بين العقل البشري في القرن العشرين والعقل البشري في القرون الوسطى . وإذا أردنا أن نفهم سر مدنيتنا الحديثة فهنا حقيقياً

فعلينا أن نفهم التطور الذي حدث في تفكير البشر . أما انقاضات والسيارات واللاسلكي والامصال والاصاغ فهذه إن هي الا نتائج لتطور العقل البشري وصنائع استحدثتها عقولنا فالعقل هو اصناعات وهذه الاشياء هي المصنوع، العقل هو المكيف وهي التكيف

يم إذن يتاز العقل الحديث ؟ وما هي المزايا التي اكتسبها والتي مكنته من تشييد هذه المدنية التي تفخر بها ؟ الجواب على هذا أن العقل الحديث يتاز بسنتين أساسيتين هما الاعتماد على النفس وتنظيم التفكير . هاتان هما الصفتان اللتان مكنتنا من بناء سفنا وطائراتنا ومن التغاطب مع انحصي الارض دون اتصال ظاهري ومن كل ما إلى ذلك من مظاهر حضارتنا . فأما الاعتماد على النفس فعناه أن يؤسس العقل معارفه وسائر مجهوداته على ما يتوصل العقل إليه بنفسه من الخبرة البشرية دون التسليم بما عداه . فثقلته مثل الرجل يشرف على اموره بنفسه ولا يتقادر إلى غيره . وأما تنظيم التفكير فعناه ترتيب المجهودات الفكرية أولاً في حالة الفرد بأن يُجسَل لها نظام واضح متناسق فينشأ عقل الفرد مهنياً متفتكاً والمنطق الصحيح . وثانياً في حالة المجموعة البشرية بأن تتعاون عقول الافراد على تنظيم مجهوداتها المتعددة وبذلك تنشأ وحدة متماسكة منها جيمعاً يصح ان يطلق عليها اسم عقل المجموعة أو العقل البشري المنظم

أيها السادة : إذا شئتم أن ينشأ اولادكم وإخوتكم وبناتكم وإخواتكم بحيث ينظلمون بمسؤولياتهم في الحياة الحديثة إذا شئتم أن يواصلوا مجهودات الجيل الذي سلفهم في تقدم الحضارة وأن يتسوا منهم علم مدينتنا فيرقعوه وعلوا من شأنه إذا شئتم ان يحافظوا على التراث الذي سيرثونه وأن يزيدوا عليه وينسوه ، إذا شئتم هذا كله فعليكم قبل كل شيء آخر أن تعلموهم كيف ينظمون تفكيرهم وكيف يتعاونون بينهم ويتعاونون مع غيرهم من نساء الامم الاخرى في هذا التفكير المنظم . أو بعبارة اخرى عليكم بإعداد نشئكم إعداداً عالياً صحيحاً ومصر على وجه الخصوص في اشد الحاجة إلى هذا الإعداد العلمي لنشئنا . فنحن كما تعلمون وإن كان اجدادنا قد قاموا بنظمهم وزيادة في تقدم العمران ورفع نواه الحضارة إلا أن أهل جيلنا يشعرون شعوراً حقا بأنهم مقصرون في تأدية هذا الواجب الاسمي نحو الاسرة البشرية ولذا فهم جادون في تدارك ما فاتهم طامولون على زيادة مجهوداتهم وأنا كواحد من هذه الامم المتبشر خيراً بما عساه ان يكون في المستقبل القريب رغم ما يعتورنا في طريقنا من العقبات فليست عنة عتية لا تتغلب عليها المزعجة الحقنة المقرونة بالصبر والآلة

لذلك أردت أن أتحديث اليكم اليلة عن هذا الموضوع الحيوي وارتباطه بمستقبل البشر لعل بعض ما اثيره من البحث وما تعرض له من النقد والتحليل يساعد بعض المساعدة في التغلب على العقبات التي تقف اليوم في سبيلنا نحو تحقيق اغراضنا  
اولاً كيف نعد نشئنا إعداداً عالياً صحيحاً . أو بعبارة اخرى كيف نعدوهم التفكير

الحر المنظم ونحيطهم علماً في الوقت ذاته نتائج تكثير الاجيال السالفة لكي يقفوا على ما قام به السلف وتكون عندهم الملكة على مواصلة مجهوداتهم . لاشك في ان التربية المدرسية والتربية الجامعية اثني تليها ها - إذا صحنا - من اهم وسائل هذا الاعداد العلمي . ولست اريد في محاضرتي هذه ان اعرض لنظم التربية الحديثة او ان ابحت في عيوب المدارس المصرية . لست اريد التعرض لشيء من هذا أولاً لأن كثيرين غيري قد وقفوا انفسهم مقدمة هذا الغرض وثانياً لسبب ربما ادهشكم ان تسموه من معلم احثك بالمدارس للمصرية والجامعات الاجنبية طوال حياته . هذا السبب هو اني لاعتمد ان نظمتا المدرسية والجامعية تنطوي على عيوب اساسية تستحق اشارة الرأي العام في شأنها . ربما ادهشكم ان تسموا هذا مني ولكن مع ذلك اقره كراي قد كرتة بعد خبرة طويلة وعمهل كثير في ابدائه . لمدارسنا وجامعاتنا في نظري والحمد لله بحجر ومافية . ليس معنى هذا انها قد جمعت صفات الكمال ولكني اعتقد ان ما بها من عيوب كلها امور قانونية تستطيع الامة ان تترك مداواتها للقائمين على ادارتها وان تثق بمقدرتهم على زيادة تحمينا وتنميتها بما يتفق والوظيفة التي ترضيها للامة . وفي رأيي ان المساعدة الحقة التي تستطيع الامة ان تسديها الى دور التعليم في مصر تكون عن طريق آخر غير طريق النقد الفني . فاذا نحن قارنا مركز دور العلم في مصر بمركزه في الامم الاخرى فان الفرق الظاهر والمحسوس بينها انما هو النقص الواضح في مجهودات افراد الامة المصرية نحو مساعدة هذه الدور المساعدة الكافية . فكمن المصريين قد وقف جانباً من ماله على انشاء المدارس او معاهد التربية العالية او على البحث العلمي ؟ كم من اساتذتنا ومعلمينا تلغى لهم مرتباتهم او مكافآتهم من اموال وقفت على هذا الغرض ؟ هل يوجد في مصر قرش واحد خصص ريعه للبحث العلمي ؟ هل تقدم احد من المشتغلين بالزراعة في مصر بهبة بنفق ريعها على البحث الزراعي العلمي او مول صناعي بانشاء معهد لتعليم صناعي او هندسي ؟ او عمن بانشاء كرسي في الجامعة لدراسة الكيمياء والعلوم الطبية او علوم النبات ؟

ولنتقل الى غير دور التعليم من وسائل الاعداد العلمي . تطورن حضراتكم ان الجمعيات العلمية هي من انجح الوسائل في تنقيف الامة لنشأ وكهلهما وذلك بما تنظمه من المحاضرات العلمية وما تنشره من الصحف والمجلات التي تتداولها ايدي الشبية فتعمل على رفع مداركهم وزيادة ثروتهم الفكرية وتعودهم اساليب التفكير الصحيح . كما ان المجلات العلمية الصبفة تؤدي مثل هذا الغرض . ومصر الى الآن مفتقرة الى كثير من مثل هذه الجمعيات وهذه المجلات ، ينشأ لا في القاهرة وحدها ولكن في سائر مدن القطر المصري بل وفي القرى والمجهود الذي اقوم به الآن من القاء هذه المحاضرة عليكم هو نتيجة من نتائج تأليف جمعية علمية من هذه الجمعيات لم يعرض بعد على تأليفها ثلاث سنوات ومع ذلك فقد

قامت بخدمات تذكر نحو نشر الثقافة العلمية في مصر وهناك اداة اخرى للاعداد العلمي لا تقل شأنًا عن سابقتها ألا وهي المكاتب العامة . فقديمًا قيل ان الكتاب خير صديق وأنا اصارحك القول بأن عادة الاستفادة من المكاتب العامة تادة غير مأثوفة في مصر حتى ولا بين خيرة المتعلمين من المصريين . فكثيراً ما يدهشني ان تحدث الى صديق متعلم فأجد انه لا يكاد يقرأ شيئاً سوى جريدته اليومية وبعض المجلات الخفيفة الروح ولا شك في ان هذا راجع إلى حد ما الى قلة ما يكتب باللغة العربية من الادب المصري والعلم المبسط في شرحه . ومع هذا فاني أرى ان انشاء المكاتب العامة في مختلف انحاء القطر سيعمل على ترغيب الجمهور في القراءة والاستفادة من الكتب لا سيما اذا اختيرت الكتب التي من شأنها ان تستثير اهتمام الناس وترغيبهم في قراءتها

الى هنا انتهى كلامي عن الاعداد العلمي ووسائله وبقي ان اتعرض للشطر الثاني من عنوان محاضرتي وهو المرتبط بمستقبل النشر بعد ان نُعدّوا هذا الاعداد العلمي . لنفرض إذن انه أصبح لنا ان نجهز دور تعليمنا ومكاتبنا العامة بأسر وسائل الاعداد العلمي واننا انشأنا الجمعيات العلمية وأصدرنا المجلات لنشر الثقافة العلمية في طول البلاد وعرضها بل واننا نجهدنا فعلاً في تخريج شبان قد تنققت عقولهم وتدريبوا على التفكير العلمي الصحيح وعرفوا ما وصل اليه الجيل الحاضر في مختلف العلوم البحت منها والتطبيقية فكان منهم الاختصاصيون كل في فرعه فمن كيميائي الى طبيعي الى رياضي الى مهندس الى طبيب وهكذا . هل نعتبر حينئذ نحن انباء الجيل الحاضر اننا بواجبنا نحو نشأنا؟ وبعبارة اخرى هل يكفي ان تفكر في اعداد النشر دون ان تفكر في مستقبلهم؟ ان واجب الجيل الحاضر نحو الجيل القادم ايها السادة ليس مقصوراً على تدريبهم في الادوار الاولى من حياتهم بل يجب ان يشمل قيادتهم في ميدان الحياة ذاتها والا لكان مثلنا مثل قائد الجيش يشرف عليه في تمرينه ثم يتخلى عنه حين يشتبك في المعركة . هذا مثل على تقصه — وكل مثل يقف عند حد من الحدود — يمثل لنا الموقف تشيلاً يساعدنا على فهمه . فعقلاء الامة ومفكروها الذين يجب ان يكونوا قاداتها عليهم واجب التفكير في مستقبل ابنائهم ومن يقومون على ارشادهم وذلك بتوجيههم في مرافق الحياة توجيهاً يتفق مع مصلحة الامة والاقتصاد في مجهوداتها . فعليهم ان ينشطوا للمجهدات التي من شأنها أن تعمل على تقدم الامة وزيادة فلاحها وأن يهيئوا اسباب توافر هذه المجهدات وتوافر وسائلها حتى اذا خرج أئشره من دور التدريب والتعليم مكوتين تكويناً علمياً صالحاً وجدوا امامهم سبلاً يسلكونها في خدمة أمتهم وفي خدمة الانسانية ولم يلقوا انفسهم في مآزق تتخرج بهم فتزل في تقوسهم اليأس وتحل القنوط والتخاذل مكان الأمل والنشاط وربما كان من أهم المشاكل التي تواجهنا اليوم في مصر هذه المشكلة مشكلة ابنائنا المتعلمين.

تحدث الي أحد الاخوان الذين يتعرضون لمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية - وكثيراً ما هم - فقال انه يرى ان التعليم في مصر قد زاد عن الحد بحيث أصبح خطراً يخشى منه على نظام المجتمع . هذا مثال من الآراء التي نسمعها كل يوم ، مثال من المغالطات التي تنطلي على كثير ممن لا يكتفون انفسهم مؤونة درس ما يلقي عليهم . أبتكلم عن خطر التعليم في بلد لا يزال أربعة ائتماس سكانها أمين ، بلدها ١.١ مليون نسمة فيها جامعة واحدة ومدرسة واحدة للهندسة . بلد زراعية ليس فيها إلا مدرسة واحدة عليا للزراعة ؟ انني أؤكد حضراتكم أن لا خطر على مصر من زيادة تعليم ابنائها تعليماً أولياً أو ثانوياً أو متوسطاً أو جامعياً إنما الخطر في ان لا نضطلع بمسئولياتنا نحن ابناء الجيل الحاضر فنحمل امر مستقبل شبابنا وتركهم وشأنهم ، جلهم على غاربهم . وبعبارة اخرى ان لا يتسنى تنظيمنا لأعمالنا الاقتصادية والزراعية والفنية مع سياستنا في التعليم . فكما أن علينا ان نقضى المدارس وتفتح ابواب الجامعات كذلك علينا في الوقت ذاته أن نوجد المصانع والمعامل والمراسد والمستشفيات وسائر الأعمال الفنية وعلينا بعد هذا كله أن نوجه النشء في اعدادهم العلمي توجيهاً يتناسب مع الحاجة إليهم في هذه المصانع وهذه المراسد وهذه الأعمال الفنية . إن المهمة أيها السادة مهمة ليست بالسهلة محتاج ال ايمان الفكر والروية كما يحتاج إلى الخبرة والحكمة والبعد عن كل مؤثر إلا مصلحة الامة ذاتها . ومن سوء الحظ أن تطوّر مصر في السنوات الاخيرة كان تطوّرأ متقلّباً لا يسبح بوجود سياسة داخلية ثابتة تعمل سنين متوالية حتى يظهر أثرها . وقد نشأ عن ذلك تضارب بين المشروعات التي ترمي إلى اعداد النشء والمشروعات التي تحتاج ال خدماتهم . مثال ذلك انني سألت صديقاً لي يشرف على مصلحة فنية من مصالح الحكومة هل هو بحاجة ال خدمات بعض خريجي كلية العلوم بالجامعة المصرية من تخصصوا في علوم مصطلحته فقال إنه يأسف لأنهم أرسلوا إلى أوروبا عدداً من المصريين ليتخصصوا في نفس هذه العلوم وهم إذا عادوا سيبدون حاجة هذه المصلحة تماماً بحيث لا يكون هناك مكان لخريجي جامعتنا . ألا ترون حضراتكم ان مثل هذا التضارب كان يمكن تلافيه لو أننا فكرنا في سياسة مشتركة بين من يعدون النشء من ناحية ومن يحتاجون إلى خدماتهم من ناحية أخرى بحيث يمكن التوفيق بين مجهودات الطرفين بما يتفق ومصصلحة البلاد ؟

أريد أن يكون مفهوماً في حديثي إليكم الليلة انني لا ألتئ لوماً على أحد ولا أتعرض لماضي على أنه مضي . وإن كان هناك لوم فهو ولا شك موزع علينا جميعاً بحيث لا يخص الفرد منا منه إلا نصيب ضئيل لا يستحق الذكر . إلا أن الماضي يجب ان يكون عبرة للمستقبل وأملئ ان أكون بالقائي كلمتي هذه الليلة قد قث بمخدمة ضئيلة ايضاً لا تستحق الذكر لعلها خدمة موجبة - لا لوم سلمي - نحو خدمة قضية التعليم في مصر وأثره في تقدم الامة ورشاهيتها